توجيه متشابه النظم القرآني عند الإمام أبي القاسم الكرماني ـ دراسة نقدية لمواضـــع سورة مريم

د. محمد أبوبكر التائب*

ـ كلية الدراسات الإسلامية ، جامعة مصراتة، ليبيا

attaeib86@gmail.com

تاريخ الارسال 2025/7/6م تاريخ القبول 2025/9/2م

The Interpretation of Similarities in Qur'anic Structures According to Imam Abu al-Qasim al-Kirmani: A Critical Study of the Passages in Surah Maryam

Dr. Muhammad Abu Bakr al-Ta'ib, Faculty of Islamic Studies, Misrata University

Abstract

The science of verbal similarity in the Qur'an is among the most important disciplines through which the rhetorical secrets of the Qur'an are revealed, and through which some aspects of its miraculous nature become apparent. Several scholars have dedicated works to this field, including Imam Abu al-Qasim Mahmoud ibn Hamzah al-Karmani, who authored *Al-Burhan fi Tawjih Mutashabih al-Qur'an* (The Proof in Guiding the Verbal Similarities of the Qur'an).

This research studies Imam al-Karmani's interpretations of the verbally similar passages found in Surah Maryam. The study is organized into three sections: the first introduces the author and his book; the second defines the science of verbal similarity in Qur'anic composition, including its linguistic and technical definitions, its significance, major works in the field, and its governing principles; the third section presents an applied study of the verbally similar passages in Surah Maryam, relying on a critical methodology and adherence to the principles and rules of this science.

المقدمة :

الحمد لله القائل في محكم تنزيله ﴿ **أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾ [سورة الزمر آية 22]، أحمده سبحانه بأن جعل القرآن نورا للمؤمنين، وموعظة للمتقين ، وأصلى وأسلم على من

حقوق النشر © للمؤلف/للمؤلفين 2025. ينشر هذا البحث بموجب رخصة المشاع الإبداعي Creative Commons (CC BY-NC 4.0)

أرسله ربه الهدى والنور، وجعل القرآن معجزته الخالدة على مر الأزمان والعصور، وعلى آله وصحبه ومن سار على هديهم إلى يوم البعث النشور.

أما بعد

فإن: القرآن الكريم منبع العلم، ومورد الحجج والحكم، علومه كثيرة، وأسراره غزيرة ، وعلم متشابه النظم القرآني، واحد من أهم العلوم الفياضة بالأسرار والمعاني، توجهت إليه عناية العلماء من أهل التفسير واللغة والبلاغة وغيرهم ، وبذلوا غاية الوسع في بحث أسراره ، وسبر أغواره، بل أفردوا له مصنفات خاصة ؛ ومن أبرز من أفرده بالتصنيف، العلامة: أبو القاسم محمود بن حمزة بن نصر الكرماني ، في كتابه : البرهان في توجيه متشابه القرآن، ولذا اخترت في هذا البحث أن أدرس طريقة المؤلف في كتابه من خلال إجراء دراسة نقدية تبين منهجه في توجيه متشابه النظم ، وسميت هذا البحث بعنوان : توجيه متشابه النظم القرآني عند الإمام أبي القاسم الكرماني دراسة نقدية لمواضع سورة مريم

مشـــكلة الدراسة :

يجيب هذا البحث عن عدة تساؤلات :

- كيف وجّه الكرماني متشابه النظم القرآني الوارد في سورة مريم ؟
-ما السمات الغالبة على توجيهات الكرماني لمواضع سورة مريم؟
-ما الضوابط والمعايير التي استعملها الكرماني في توجيه المتشابه اللفظي؟

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

من أهم الأمور التي كانت وراء اختياري لهذا الموضوع ما يأتي:

1- يدرس البحث جانبا مهما من جوانب علوم القرآن الكريم، حيث يبحث في بلاغة القرآن الكريم وإعجازه ونظمه في الآيات المتشابهات.

2- دراسة البلاغة القرآنية بصورة تطبيقية تحليلية أمر مهم جدا في تذوق البيان القرآني، وبناء الملكة التي تمكننا من تدبر القرآن الكريم، وفهم خصائص ألفاظه ودلالاته.

3- يُعد كتاب البرهان للكرماني واحدًا من أهم المراجع والمصنفات التي يرجع لها من رام دراسة علم متشابه النظم القرآني، والوقوف على الأسرار البيانية في مكررات القرآن الكريم .

الدراسات السابقة :

من خلال البحث والمطالعة، وجدت أنه قد صدرت عدة دراسات بحثية تدرس علم المتشابه اللفظي والمؤلفات التي صنفت فيه والمنهجيات العلمية في ذلك، لكنني لم أقف على من صنّف دراسة بحثية مشابهة لهذا البحث تتضمن توجيهات الإمام الكرماني في كتابه البرهان بالنقد والدراسة .

منهجية البحث :

اعتمدت في هذا البحث على المنهجين: التحليلي والنقدي، وذلك بدراسة توجيهات العلامة الكرماني، ومناقشتها، والنظر في دقتها ورجاحتها. معتمدا في ذلك على الضوابط التي سار عليها العلماء في توجيه المتشابه اللفظي.

خطة البحث :

انتظمت خطة هذا البحث في مقدمة وثلاث مباحث وخاتمة: المقدمة: ذكرت فيها أهمية الموضوع وأسباب اختياره، ومشكلة البحث، والدراسات السابقة، وخطة البحث والمنهجية المتبعة فيه . المبحث الأول : التعريف بالمؤلف والكتاب ، والمبحث الثاني: التعريف بعلم متشابه النظم القرآني ، والمبحث الثالث : الدراسة التطبيقية ، والخاتمة : وذكرت فيها جملة من النتائج التي أسفر عنها البحث.

المبحث الأول ـ التعريف بالمؤلف والكتاب:

المطلب الأول ـ التعريف بالمؤلف :

لم تتوسع كتب التراجم في ذكر أخبار الإمام الكرماني، إذ إن ما أوردته عنه من ترجمة يعد نزرا قليلا لا يكاد يكشف لطلاب العلم عن أبرز الجوانب في حياة هذا العالم الجليل، وأكثر ما ذكره العلماء في ترجمتهم للكرماني إنما هو مأخوذ عن الترجمة التي أوردها ياقوت الحموي في كتابه معجم الأدباء. وسأحاول هنا أن أجمع ما تناثر من أخباره في بطون تلك المصنفات .

أولا ـ اسمه ونسبه وكنيته : هو محمود بن حمزة بن نصر الكرماني، كنيته: أبو القاسم ، ولقبه برهان الدين ويعرف بتاج القراء، النحوي الصرفي المفسر(1) ، ينسب إلى كرمان –بفتح الكاف وكسرها - ، وهي أحد مدن إيران اليوم(2)

ثانيا : شيوخه وتلاميذه: رغم ما تلقاه الشيخ الكرماني من علوم متنوعة، وما تركه من مصنفات متعددة ؛ إلا إن كتب التراجم أغفلت ذكر شيوخه وتلاميذه، ولم تورد منهم إلا نفرا قليلا(3) ، فمن شيوخه:

والده حمزة بن نصر الكرماني : مقري متصدر، قرأ بالعشر وغيرها على أبي نصر بن محمد بن أحمد الكركانجي، قرأ عليه ابنه محمود(4)

محمد بن حامد بن الحسن الخيامي الطوسي: مقرئ متصدر، روى القراءات عن عبيد الله بن محمد الطوسي وعبد الله بن الحسين النيسابوري، روى القراءات عنه محمود بن حمزة النيسابوري(5)

تلاميذه : من أهم تلاميذ الكرماني الذين احتفظت لنا بهم كتب التراجم :

نصر بن علي بن محمد الشيرازي: المعروف بابن أبي مريم فخر الدين أبو عبد الله الفارسي أستاذ عارف، صاحب كتاب الموضح(6)

رضي الدين أبو عبد الله محمد بن نصر الكرماني :صاحب كتاب شواذ القراءات، ينقل عن الكرماني في أكثر من موضع في كتابه هذا(7)

ثالثا ـ مصنفاته العلمية وثناء أهل العلم عليه :

1-مصنفاته : ألّف الشيخ الكرماني عددا من المصنفات في التفسير والنحو والقراءات وغيرها، ومن أهم مصنفاته:

1- البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان : وهو هذا الكتاب محل الدراسة في هذا البحث. وسيأتي مزيد تعريف به في مطلب مستقل.
2- غرائب التفسير وعجائب التأويل
3- لباب التأويل
4- شرح اللمع لابن جني
5- الإيجاز شرح الإيضاح لأبي علي الفارسي
6- الهداية في شرح الغاية
7- الإفادة في النحو.

هذه أهم مصنفات الإمام الكرماني، وله غيرها مصنفات أخرى ذكرتها كتب التراجم، بعضها مخطوط وبعضها مفقود. والله أعلم (8)

2-ثناء العلماء عليه : جادت قرائح المصنفين الذين ترجموا للإمام الكرماني بأعطر الثناء على الشيخ وذلك لمنزلته العالية في العلم، قال عنه ياقوت الحموي : "هو تاج القراء وأحد العلماء الفقهاء النبلاء صاحب التصانيف والفضل كان عجبا في دقة الفهم وحسن الاستنباط"(9) . وقال عنه ابن الجزري : "إمام كبير محقق ثقة كبير المحل"(10)

وقال عنه الأدنروي صاحب طبقات المفسرين " العالم الفاضل المحقق العلامة"(11)

4- **وفاته** : اختلفت كتب التراجم في تحديد سنة وفاة الإمام الكرماني، ولكنها تذكر أنه توفي في حدود سنة خمسمائة من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم(12) بل نص الزركلي في كتابه الأعلام أنه توفي سنة خمسمائة وخمس للهجرة(13) غير أن محقق كتاب غرائب التفسير وعجائب التأويل أفاد من خلال اطلاعه على بعض النسخ الخطية للكتاب بأن تلك النسخة قد كتبت في عصر المؤلف، وقد أرخ الناسخ بأنه أتمّ استنساخ النصف الأول من الكتاب سنة خمس وثلاثين وخمسمائة. وبناء على هذا فإن الصواب أن يقال بأن وفاة الشيخ الكرماني لم تكن سنة 505هـ ، ولا بعدها بقليل، بل كانت في حدود سنة 535 للهجرة أو بعدها(14) والله أعلم

رحم الله الشيخ الكرماني رحمة واسعة وغفر له، ولجميع المسلمين أجمعين.

المطلب الثاني ـ التعريف بالكتاب:

أولا ــ اسم الكتاب، وموضوعه : اختلفت المصادر التي ترجمت للشيخ الكرماني في عنوان هذا الكتاب: فجاء في غاية النهاية بعنوان : (البرهان في معاني متشابه القرآن)(15) ، وفي هدية العارفين ومعجم المؤلفين باسم : (البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان)"(16) وفي فهرس الخزانة التيمورية بعنوان : (البرهان في توجيه متشابه القرآن)، وفي طبقات الداودي، وفهرس المكتبة الأزهرية بعنوان:(البرهان في متشابه القرآن)(17) ، وقد نص المؤلف رحمه الله تعالى على اسمه في آخر خطبة الكتاب وذلك بقوله : وسميت هذا الكتاب : (البرهان في متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان). ولعل السبب في الاختلاف في عنوان الكتاب هو ورود عبارة :(لما فيه من الحجة والبيان) ضمن التسمية التي أوردها المؤلف، وقد اختلف الناس فيها، هل هي من ضمن مسمى الكتاب ، أم هي تعليل للتسمية ؟ فمن رأى أنها من ضمن التسمية أدخلها في العنوان، ومن رأى أنها تعليل للتسمية، حذفها واقتصر على التسمية على اسم (العنوان في متشابه القرآن). وقد حقّق الكتاب الباحث عبد القادر أحمد عطا الله، وطبعته دار الفضيلة سنة 1403هـ / 1983م، وقد أبعد المحقق جدا حين سماه "أسرار التكرار في القرآن الكريم " وقد نص أنه هو –يعني نفسه- من أطلق عليه هذا الاسم(18) ، وهذا تصرف من المحقق غير مقبول ولا محمود، لأن فيه تغييرا لعنوان الكتاب الذي سماه به مؤلفه واشتهر به بين الناس. ولعل المحقق أدرك خطأه هذا فتراجع عن هذا العنوان الذي سماه به ، وسمى الكتاب باسمه المعروف :"البرهان في توجيه متشابه القرآن وذلك في طبعة دار الكتب العلمية ببيروت في الطبعة الأولى سنة 1986م.

ثانيا ـ موضوع الكتاب وسبب تأليفه :

موضوع الكتاب : يتناول كتاب (البرهان) دراسة الآيات القرآنية المتشابهة، التي اتفقت ألفاظها، واختلفت فيما بينها اختلافا يسيرا إما بالنقص أو الزيادة، أو التقديم والتأخير، أو التعريف والتنكير، أو بإبدال حرف مكان آخر ونحو ذلك، فيذكر المؤلف هذه الآيات مرتبة حسب ترتيب السور القرآنية، محاولا استجلاء العلل والتوجيهات في ورود هذه الاختلافات ، واستظهار الحكم التي اختصت بها كل آية عن نظيرتها . وقد نص المؤلف على موضوع الكتاب في مقدمته(19)

بواعث التأليف: بيّن المصنف رحمه الله في مقدمة كتابه أنه صنف هذا الكتاب من أجل بيان المتشابه اللفظي، وذلك لأن من ألف فيه من الأئمة قبله اقتصروا على الجمع بين الآيات ونظائرها، ولم يعتنوا بذكر الوجوه والعلل وأوجه الفرق بين الآية ومثيلاتها، فكان ذلك سببا في أن يفرد هذا الكتاب بالتصنيف لأجل بيان المتشابه، والكشف عن التعليلات والحكم والتوجيهات الموضحة للآيات حتى يزول إشكالها ، وتمتاز عن أشكالها. ويضاف إلى ذلك أن المؤلف ذكر أن ما وصله من الكلام في علم متشابه النظم لا يتجاوز بعض الكلمات المعدودات التي نقلها أبو مسلم الأصبهاني (ت459هـ)في تفسيره، عن تفسير الخطيب أبي عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي(ت 420هـ) ، وتعهد المؤلف –أي الكرماني- بأنه سيحكي ما وصل إليه من كلام الإسكافي في الموضع الذي يرد فيه(20)

ويؤخذ من هذا أمـــور :

الأول: أن المؤلف-رحمه الله- لم يطلع على كتاب الإسكافي في علم المتشابه "درة التأويل وغرة التنزيل" ، وأن ما وصله هو بعض الكلمات التي وقف عليها في تفسير أبي مسلم الأصبهاني مما نقله عن تفسير الإسكافي.

الثانـــي: أن المؤلف استشعر أن هذا العلم حقيق بأن يفرد فيه مصنف مستقل، يجمع أطرافه ويلم شتاته، فالتقط هذه الكلمات التي وردته عن الإسكافي وبنى عليها فكرة كتابه (البرهان) . قال رحمه الله : "ولكني أفردت هذا الكتاب لبيان المتشابه، فإن الأئمة رحمهم الله تعالى قد شرعوا في تصنيفه واقتصروا على ذكر الآية ونظيرتها، ولم يشتغلوا بذكر وجوهها وعللها والفرق بين الآية ومثلها، وهو المشكل الذي لا يقوم بأعبائه إلا من وفقه الله لأدائه، وقد قال أبو مسلم في تفسيره عن أبي عبد الله الخطيب في تفسيره كلمات معدودات منها، وأنا أحكي لك كلامه فيها إذا بلغت إليها مستعينا بالله

ومتوكلا عليه وسميت هذا الكتاب البرهان في متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان وبالله وعليه"(21)

المبحث الثاني ـ التعريف بعلم متشابه النظم القرآنـــــي:

المطلب الأول ـ تعريف المتشابه اللفظي:

يطلق التشابه في اللغة على معان متعددة، وسأذكر منها هنا ما يتناسب مع علم المتشابه اللفظي. فالمتشابه اسم فاعل من التشابه ، يقال شِبْه وشَبَهٌ ، وأشبهه وشابهه ماثله وساواه ، وتشابه الأمران واشتبها أشبه كل منهما الآخر حتى التبسا، واشتبهت الأمور اشتباها إذا اختلطت والتبست، وأمور مُشْتبِهَة ومُشَبَّهَة: مشكلة(22) ، ومنه قوله تعالى- : ﴿ **وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**)(23) ، قال ابن فارس: الشين والباء والهاء أصلٌ واحدٌ يدلُّ على تشابُه الشّيء وتشاكُلِهِ لوناً وَوَصْفاً. يقال شِبْه وشَبَه وشَبيه. ...والمُشَبّهَات من الأمور: المشكلات. واشتبه الأمرانِ، إذا أَشْكَلاَ(24) ، وقال الفيومي : و (شبهت) الشيء بالشيء: أقمته مقامه لصفة جامعة بينهما"(25) ، ويؤخذ مما سبق أن التشابه يطلق في اللغة على معنين :

الأول : المماثلة والمساواة

الثاني: الاختلاط والالتباس

وقد جعل ابن قتيبة -رحمه الله- المعنى الأول أصلا، وجعل المعنى الثاني ناشئا عن الأول، حيث قال:"وأصل (التّشابه): أن يشبه اللفظ اللفظ في الظاهر، و المعنيان مختلفان...و منه يقال: اشتبه عليّ الأمر، إذا أشبه غيره فلم تكد تفرّق بينهما، و شبّهت عليّ: إذا لبّست الحقّ بالباطل، ...ثم قد يقال لكلّ ما غمض و دقّ متشابه، و إن لم تقع الحيرة فيه من جهة الشّبه بغيره...و مثل المتشابه (المشكل). و سمي مشكلا: لأنه أشكل، أي دخل في شكل غيره فأشبهه و شاكله(26)

التعريف بالمتشابه في الاصطلاح:

قبل إيراد تعريف علم المتشابه اللفظي ، يحسن أن نقدم بين ذلك ذكر إطلاقات مصطلح التشابه في علوم القرآن، ومعرفة اتجاهات التأليف فيه :

أولا ـ إطلاقات مصطلح المتشابه في علوم القـــــرآن: يطلق مصطلح المتشابه على نوعين:

الأول: ما يقابل المحكم: ويسميه بعضهم بـ"المتشابه المعنوي"، وهو المتبادر للذهن غالبا عند إطلاق مصطلح" المتشابه "في أبواب علوم القرآن .

الثاني: المتشابه اللفظـــي . وهذا النوع هو المقصود بالدراسة هنا.

ويلاحظ أن العلماء الذين درسوا علم المتشابه اللفظي وتناولوه بالتصنيف كانوا على اتجاهين:

الاتجاه الأول: حصر الآيات والألفاظ المتشابهة لإعانة حفاظ القرآن الكريم على حفظها وضبطها والتثبت منها. دون التعرض للتعليل والتوجيه . ويمكن تسميته **(باتجاه الجمع).**

وقد ألف فيه جماعة من أهل العلم قديما وحديثا منهم الإمام الكسائي ، وأبو الحسين بن المنادي، وأبو الحسن السخاوي وغيرهم .

الاتجاه الثانـــي: توجيه ظواهر اختلاف المتشابه اللفظي وذكر علله، للوقوف على بلاغة القرآن وأسرار التنزيل، وإبراز وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم والرد على الطاعنين والملحدين. ويمكن تسميته **(باتجاه التوجيه والتعليل)**

ومنها كتاب (البرهان في متشابه القرآن)للكرماني، وكتاب (درة التنزيل وغرة التأويل) للخطيب الإسكافي، وكتاب (ملاك التأويل) لابن الزبير لغرناطي، و(كشف المعاني في المتشابه من المثاني) لبدر الدين بن جماعة وغيرها.

وعلة التنبيه على هذه المسألة هي أنه قد يظن بسبب اختلاف اتجاهات التأليف في المتشابه اللفظي أنهما نوعان مختلفان، كما ذهب إلى ذلك الشيخ الدكتور مساعد الطيار، حيث قسم المتشابه في علوم القرآن إلى ثلاثة أنواع، بجعله كل اتجاه من اتجاهات التأليف في المتشابه اللفظي نوعا مستقلا(27)

والصواب-والله أعلم- أن يقال أنهما نوع واحد ، لكن مقاصد المؤلفين وتوجهاتهم تباينت في دراسته والتصنيف فيه(28) وهذا هو صنيع العلماء كالزركشي والسيوطي وغيرهم، حيث أوردوا المصنفات في المتشابه اللفظي باتجاهيه دون التفريق بينها(29)

تعريف المتشابه اللفظي اصطلاحا : عرف العلامة الزركشي علم المتشابه بأنه : إيراد القصة الواحدة في صور شتى وفواصل مختلفة ويكثر في إيراد القصص والأنباء . ويعد هذا التعريف من أضبط تعاريف علم المتشابه ، وتابعه على هذا السيوطي وأبوالبقاء الكفوي وغيرهم (30) ، وعرفه ابن الزبير الغرناطي بأنه : توجيه ما تكرر من آيات القرآن لفظا بتقديم أو تأخير وبعض زيادة في التعبير(31) ، وعرفه قبل ذلك الطبري في تفسيره بأنه: هو ما اشتبهت الألفاظ به من قصصهم عند التكرير

في السور، بقَصّه باتفاق الألفاظ واختلاف المعاني، وبقصّه باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني (32) ، وليس مراد الزركشي بالقصة في التعريف، المعنى المعروف المتبادر للقصة القرآنية، كقصص الأنبياء ونحو ذلك، بل المراد هو: الموضوع عموما، سواء أكان في قصة قرآنية، أم في غيرها، بدلالة قوله : "ويكثر في إيراد القصص والأنباء"، ويؤيده أن ما استدل به من الأمثلة ليس كله من القصص القرآني، كقوله تعالى ﴿ **وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ**﴾ وباقي القرآن ﴿ **لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ**﴾وكقوله سبحانه في الأنعام ﴿**نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ** ﴾ ، وفي الإسراء ﴿**نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ**) (33)

المطلب الثاني ــ أهمية علم متشابه النظم القرآني:

لعلم المتشابه أهمية بالغة تتمثل في عدة أمور أهمها :

- شرف هذا العلم نابع من شرف تعلقه بالقرآن الكريم ، وكما هو مقرر فشرف العلم بشرف المعلوم، ولذا فإنه لا أشرف وأعظم من العلوم المتعلقة بكتاب الله عز وجل.
- ارتباطه الوثيق بعدد من العلوم، منها علم التفسير والبلاغة والإعجاز، وعلم المناسبات والقراءات وغيرها.

النظر في علم المتشابه والبحث فيه يعد من ضروب التدبر والتذكر الذي أمرنا ربنا سبحانه به **أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّار** [سورة ص آية 28] وقال تعالى ﴿ **أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾ [سورة الزمر آية 22] لهذا العلم أهمية بالغة في الرد على شبهات الطاعنين في القرآن الكريم الذين وجهوا سهامهم للآيات والقصص المتكرر في القرآن . وقد صرح كثير من العلماء بهذه الغاية كابن المنادي(34) والإسكافي(35) ، بل قد سمى ابن الزبير الغرناطي كتابه بما يدل على ذلك (ملاك التأويل القاطع بذي الإلحاد والتعطيل).

- يُسهم علم المتشابه في الكشف عن الأسرار البلاغية للقرآن الكريم ووجوه إعجازه .
- اهتمام كبار العلماء بهذا العلم وعنايتهم به بالحديث عنه والتصنيف فيه .
- يعين الحفظة على تثبيت محفوظهم من كتاب الله جل وعلا وإدراك ما اختص به كل موضع من المواضع المتشابهة عن غيره .

يقول الشيخ طاهر الجزائري منوها بمنزلة علم المتشابه اللفظي: "ولا يخفى أن المسائل المذكورة من متعلقات العلم المسمى بعلم المتشابه من القرآن ، وهو علم جليل الشأن له اتصال بعلم المناسبات ، وقد ألف فيه كثير من العلماء الأعلام فأجادوا ، إلا إنه كغيره من العلوم قد تكلم فيه كثير ممن ليس لهم براعة فيه فخبطوا فيه خبط عشواء

في ليلة ظلماء ، إلا إن ذلك لا يؤثر في نفس العلم شيئا ، ولا يحط من قدره ، ولا يوجب الإعراض عنه ، وشأن العلم المحقق الواقف على ذلك أن يكثر سواد المحسنين فيه إن ساعده الحال ، أو يشير إليهم ويدل المسترشد عليهم "(36)

المطلب الثالث ــ أهم مصنفات في علم متشابه النظم القرآني:

سبق أن ذكرنا أن التأليف في متشابه اللفظ كان وفق اتجاهين اثنين :

الأول : اتجاه الجمـــع: ومن أبرز ما صنف فيه :

- متشابه القرآن: لأبي الحسن علي بن حمزة الكسائي الإمام المعروف ت 189هـ .
- رسالة في متشابه التعبير باللفظ في آيات القرآن الكريم: لابن أبي داود أبو بكر عبد الله بن سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني ت 316هـ .
- متشابه القرآن العظيم: لأبي الحسين أحمد بن جعفر بن المنادي ت 336هـ .
- هداية المرتاب وغاية الحفاظ والطلاب في تبيين متشابه الكتاب: أرجوزة من نظم أبي الحسن علي بن محمد السخاوي ت 643هـ.
- تتمة البيان لما أشكل من متشابه القرآن: لأبي شامة عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي 665هـ أرجوزة ذكر فيها مؤلفها ما أغفله شيخه السخاوي في نظمه هداية المرتاب آنف الذكر.
- تذكرة الحفاظ في مشتبه الألفاظ: لبرهان الدين إبراهيم بن عمر الجعبري ت 730هـ.

ومن الكتب المعاصرة في هذا الشأن:

- دليل المتشابهات اللفظية في القرآن الكريم: لمحمد بن عبد الله الصغير .
- تنبيه الحفاظ للألفاظ المتشابهة الألفاظ: لمحمد بن عبد العزيز المسند .

الاتجاه الثانـــي : اتجاه التوجيه والتعليل : وأهم المصنفات في هذا الجانب :

-درة التنزيل وغرة التأويل: لمحمد بن عبد الله الأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي ت 420هـ.

- البرهان في توجيه متشابه القرآن: لأبي القاسم محمود بن حمزة الكرماني توفي في حدود سنة 535هـ

- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل: لأحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي ت 708هـ

- كشف المعاني في المتشابه من المثاني: لبدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة ت733هـ

- فتح الرحمن بكشف ما يلتبس من القرآن: لأبي يحيى زكريا الأنصاري ت 926هـ.
وقد اعتنى الدكتور صالح الشثري بهذه الكتب الخمسة وأصحابها ومناهجهم في رسالته النافعة (المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وأسراره البلاغية).

هذه أهم المصنفات في علم المتشابه اللفظي ، وتوجد غيرها كثير من المؤلفات النافعة قديما وحديثا بين منظوم ومنثور، بالإضافة إلى جملة من الأبحاث المعاصرة التي درست جوانب هذا العلم وأبرزت معالمه بطرق مختلفة ، لكن طبيعة البحث لا تسمح باستقصائها وتتبعها فليرجع إليها في مظانها(37)

المطلب الرابع ـ الضوابط المنهجية في توجيه المتشابه:

ذكر الباحثون المعتنون بدراسة علم المتشابه اللفظي جملة من القواعد والضوابط المستفادة من كتب العلماء وطرائقهم في توجيه المتشابه اللفظي، وهذه الضوابط هي التي يصار إليها في الدراسات النقدية لعلم المتشابه ، ومن تلك الضوابط:

1-مراعاة وحدة الموضـــــوع : اختلف أهل هذا الفن في هذه المسألة : هل يشترط في المتشابه اللفظي اتحاد موضوع الآيات المتشابهة أو لا؟

فذهب بعضهم إلى أن المتشابه اللفظي هو ما اتحد موضوعه، وقد أشار إلى هذا الضابط العلامة الزركشي بقوله في تعريف المتشابه : "إيراد القصة الواحدة" فاشترط أن المتشابه ما كان موضوعه واحدا . وقد نازع في هذا الضابط بعض الباحثين فلم يعدوه شرطا في المتشابه اللفظي(38) ، ولهذا نجد أهل العلم كالكرماني وابن الزبير الغرناطي لا يشترطون هذا الشرط في كتبهم، فتراهم يذكرون من الآيات كل ما تشابه لفظا، سواء اتحد موضوعها أو اختلف

ويمكن توجيه اختيار الزركشي ومن معه في اشتراطهم وحدة الموضوع، بأن التساؤل عن الآيات المتشابهة إنما يقع فيما اتحد موضوعه، فيقال: لماذا اختلف التعبير على الرغم من أن موضوع الآيات واحد، وما الأسرار البلاغية في أن يعبر عن ذات الحدث وذات الموضوع بأساليب مختلفة؟!!

واختلاف التعبير عن الحدث الواحد هو الأمر الذي اعترض عليه الزنادقة والملحدون، وصوبوا سهام طعنهم في القرآن الكريم من خلاله ، وهو الذي حدا بعلمائنا إلى التأليف في هذا العلم وبيان أوجهه وعلله.

أما ما لم يتحد موضوعه فإنه لا يقع فيه مثل هذا ؛ إذ لا غضاضة في أن تأتي فيه العبارات بأوجه مختلفة، وأساليب متباينة، وهذا النوع من الآيات – بهذا الاعتبار- لا يندرج تحت المتشابه اللفظي، فالتشابه فيه منتفٍ من أساسه باختلاف الموضوع.

2- **الأصل مراعاة الجوانب المعنوية في التعليل** : تنوعت توجيهات العلماء للمتشابه إلى توجيهات تراعي الجوانب المعنوية ، وأخرى تراعي الجوانب اللفظية، والأصل في ذلك أن تكون التوجيهات اللفظية تبعا للمعنوية، وألا تكون التحسينات اللفظية هي الأصل في التوجيه، لأن الألفاظ تابعة للمعاني . يقول الدكتور علي الجندي: "ومن الحق ألا ينظر إلى بلاغة القرآن هذه النظرة التي لا تكاد تتجاوز الألفاظ والصيغ، فإن هذه الصورة الحسية مع فخامتها، وجمالها وجلالها ، لا تتجلى في روعتها الحقيقية الفاتنة، إلا إذا صحبها بيان لما اكتنّ فيها من بدائع الأسرار ودقائق الأغراض"(39)

وليس معنى هذا إهمال اللفظ بالمطلق، بل ألفاظ القرآن الكريم هي أعظم الألفاظ وأجلها وأفصحها، ولها من الفصاحة أعلى مراتبها التي تعجز عنها قدر العالمين(40)

يقول العلامة الزركشي في حديث عن أساليب القرآن وفنونه البليغة: وشذ بعضهم فزعم أن موضع صناعة البلاغة فيه إنما هو المعاني فلم يعد الأساليب البليغة والمحاسن اللفظية؛ والصحيح أن الموضوع مجموع المعاني والألفاظ إذ اللفظ مادة الكلام الذي منه يتألف ومتى أخرجت الألفاظ عن أن تكون موضوعا خرجت عن جملة الأقسام المعتبرة إذ لا يمكن أن توجد إلا بها"(41)

3- مراعاة السياق عند توجيه المتشابه : يعد السياق من أهم ما يعصم المفسر من الزلل في تفسير كلام الله، فبه ترفع الإشكالات، وتُرجَّح المحتملات، وتُقاس الآراء، ويُردُّ على أهل الزيغ والأهواء، ويُتحاكم إليه لمعرفة صحيح الأقوال من ضعيفها، وراجحها من مرجوحها، وقد احتفى العلماء احتفاء كبيرا بالسياق وبينوا أهميته وعظم الحاجة إليه، يقول العز بن عبد السلام: إذا احتمل الكلام معنيين وكان حمله على أحدهما أوضح وأشد موافقة للسياق كان الحمل عليه أولى "(42) ، وقال أيضا : "... والسياق يرشد إلى تبيين المجملات وترجيح المحتملات وتقرير الواضحات وكل ذلك يعرف بالاستعمال، فكل صفة وقعت في سياق المدح كانت مدحا وكل صفة وقعت في سياق الذم كانت ذما (43) ، وذكر ابن جزي في مقدمة تفسيره أن من قواعد الترجيح أن يشهد بصحة القول سياق الكلام ويدل عليه ما قبله أو ما بعده "(44) . وأنكر ابن تيمية - رحمه الله - على الذين يفسرون القرآن بمجرد ما يسوغ من اللفظ من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلم به ولسياق الكلام(45) ، وقال الشيخ السعدي في بيان الأمور المعينة على فهم مراد القرآن : "فالنظر لسياق الآيات مع العلم بأحوال

الرسول وسيرته مع أصحابه وأعدائه وقت نزوله، من أعظم ما يعين على معرفته وفهم المراد منه"(46)

4- مراعاة الدراســـــة الدلالية واللغوية: إن من أهم ما ينبغي أن تنصرف له عناية الباحث في علم متشابه النظم القرآني، مراعاة معاني الألفاظ ومدلولاتها ، والفروق اللغوية بينها، والعناية بالدراسة المعجمية التي يستجلي من خلالها اختصاص كل موضع من المواضع بألفاظه المباينة لغيره، لأن كل كلمة قرآنية جاءت في موضعها اللائق بها، ولا يمكن أن يسد غيرها مسدها، يقول ابن عطية : إن كتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد، ونحن تبين لنا البراعة في أكثره ويخفى علينا وجهها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة وميز الكلام"(47)

وفي هذا الشأن يقول الخطابي: "اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به، الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإمَّا ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة، ذلك أنَّ في الكلام ألفاظًا متقاربة في المعاني، ويحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب". والأمر في ترتيبها بخلاف ذلك؛ لأنَّ لكل لفظة خاصة تتميز بها عن صاحبتها في بعض معانيها، وإن كانا قد يشتركان في بعضها"(48)

هذه أهم الضوابط الخاصة التي ينبغي الاعتناء بها عند دراسة علم المتشابه اللفظي، بالإضافة إلى ضرورة الالتزام بمراعاة القواعد العامة التي ينتهجها أهل التفسير وعلوم القرآن عموما.

المبحث الثالث ــ دراسة التطبيقيـــــة :

الموضـــــــع الأول:

قال الكرماني - رحمه الله - تعالى - : قوله ﴿**وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا** ﴾ ، ﴿ **وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا**)؛ لأن الأول: في حق "يحيى"، وجاء في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم : "ما من أحد من بني آدم إلا أذنب أو همّ بذنب، إلا يحيى بن زكريا "(49) ، فنفى عنه العصيان، والثاني: في عيسى، فنفى عنه الشقاوة وأثبت له السعادة، والأنبياء عندنا معصومون عن الكبائر غير معصومين عن الصغائر(50)

وحدة الموضـــوع: يلاحظ أن موضوع الآيتين مختلف، فالأولى في حق نبي الله يحيى عليه السلام ، والثانية في حق عيسى عليه السلام، فالموضوعان مختلفان،

وبناء على ما تقرر من تعريف المتشابه اللفظي بأنه : إيراد الآية والآيات ذات الموضوع الواحد في سورة واحدة أو أكثر من سورة، بطرق شتى وأساليب مختلفة(51)

بناء على هذا الحد فإن هاتين، الآيتين لا تندرجان ضمن مفهوم المتشابه اللفظي الاصطلاحي، وذلك لاختلاف موضوعهما. والكرماني –رحمه الله- يتوسع في مفهوم المتشابه اللفظي، حيث إنه يعدّ فيه كل ما تكرر من آيات القرآن الكريم بألفاظ متفقة، مع تغاير بينها بالزيادة أو النقصان، أو التقديم أو التأخير ، أو الإبدال ونحو ذلك(52) ولكن لا بأس باستجلاء التعليلات في مثل هذه الآيات التي اختلف موضوعها، . لا لأنها من متشابه النظم؛ بل لأنها من أسرار التعبير القرآني التي يُسأل عنها.

الدراســـة: استشهد الكرماني بالحديث النبوي في توجيه هذه الآية. فجعل العلة في نفي العصيان لأجل ما دل عليه الحديث الشريف؛ وهذا استدلال منه في غاية الحسن ؛ ولكن يلاحظ أنه : أغفل النظر إلى سياق الآيات، ولم يلجأ إليه في التوجيه، مع أن غيره كابن الزبير الغرناطي أعمله في بيان الحكمة من تخصيص كلّ آية بما خُصّت به، حيث قال: «جاء في الآية قبلها ﴿ **وَكَانَ تَقِيًّا**﴾ثم جاء بقوله ﴿**وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا** ﴾ ؛حتى يُفهم منه الوفاء بوجوه التقوى، حتى لا يكون من الموصوف به معصية ولا تقصير، فالمراد - والله أعلم - نفي للمعاصي جملة»(53) ، وكذلك قوله في معرض كلامه عن توجيه تخصيص عيسى عليه السلام بقوله ﴿ **وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا**)؛ قال: " والثاني: في عيسى - عليه السلام - فنفى عنه الشقاوة وأثبت له السعادة". فكلامه هذا يفتقر إلى النظر في الدراسة الموضوعية ؛ إذ العلة التي أوردها: " أنه أراد نفي الشقاوة عن نبي الله عيسى - عليه السلام - وإثبات السعادة له" ، لا وجه لحصرها فيه هنا وحده؛ إذ كل أنبياء منتفية عنهم الشقاوة وثابتة لهم السعادة، فما ذكره يعدّ حكما عاما لم تتضح من خلاله العلة من أجلها خُصّ نبي الله عيســـى - عليه السلام - بهذا الوصف في هذا الموضع.

وبيان ذلك ما ذكره ابن الزبير الغرناطي: " وأما قوله في قصة عيسى ﴿ **وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا**)؛ فقد لوحظ فيه ما جرى لأتباعه ، وما وقعوا فيه من العظيمة حين قالوا: هو ابن الله، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، فاستحقوا الوصف بالشقاء بمقالهم...، ليتبرأ من حالهم كما يتبرأ حين يقول في الآخرة ﴿ **مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ**﴾ (54) فقد وضح ورود كل من الوصفين على أجلّ النظم وأتمّ المناسبة، وإن عكس الوارد لا يمكن. والله أعلم(55)

ومن التوجيهات الحسنة التي وُجِّه بها هذا الموضع - بحسب رأيي- وإن كان غيره لا يعارضه في المعنى، بل يختلف معه اختلاف تنوع، ما ذكره الدكتور جمال أبو حسان، في كتابه "الدلالة المعنوية لفواصل الآيات القرآنية" بقوله: «ويلوح للباحث -والله أعلم بأسرار كتابه- أن استعمال القرآن لكلمة "عصيا" ملحوظ فيه بلوغ والديه من الكبر عتيا، فهذا يلائمه أن يكون الغلام المُهدى إليهما من الله طائعا لا عصيا، إذ كانا قد انتظراه هذه المدة الطويلة ثم أنعم الله به عليهما، وفيه إشارة إلى رأفة يحيى - عليه السلام - العظيمة بوالديه في هذه السن. وأما استعمال ﴿**شَقِيًّا**﴾ في حق عيسى - عليه السلام - ونفيها عنه، فملحوظ فيه -والله أعلم- حال أمه؛ إذ الشقاوة خلاف السعادة، ومريم عليها السلام قد تعرضت لهزة عنيفة بهذا المولود، فما أراد الله أن يجمع عليها عداوة قومها وشقاءها بولدها. ولله أمر هذا القرآن العظيم»(56) اهـ . فظهر بذلك العلة في تخصيص نبي الله يحيى - عليه السلام - بنفي العصيان في مقابل تخصيص نبي الله عيسى - عليه السلام - بنفي الشقاوة. وهذا المعنى لم يظهر في كلام الكرماني كما سبق... ، فالنظرة العامة عند ابن الزبير وعند الدكتور "جمال أبو حسان" لأغراض السورة وسياق الآيات، ولأطراف قصة نبي الله عيسى –عليه السلام -'تولَّد عنها حسنٌ في التوجيه والتعليل، أما الكرماني لما حصل منه قصور في النظر إلى أطراف القصة، وعناصر الموضوع، جاء توجيهه موهِماً.

والذي يظهر لي -والله أعلم- أنّ الكرماني رحمه الله تعالى قد ألمح في جوابه هذا إلى العلل المذكورة آنفا ؛ لكنّ كلامه لم يأت على الوصف الدقيق الذي يلامس فهم القارئ مباشرة، فهو كمن حام حول الجواب دون أن يأتي عليه . فما ذكره يمكن أن يقال عنه أنه تفسير للألفاظ وشرح لدلالات الكلمات، ولم يرتق إلى أن يكون توجيها تتجلى من خلاله أسرار النظم. والله أعلم .

الموضع الثانـــــــي:

قوله﴿ **وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ**﴾ في قصة يحيى، ﴿ **وَالسَّلَامُ عَلَيَّ**﴾ في قصة عيسى، فنكّر في الأول، وعرّف في الثاني؛ لأن الأول من الله – تعالى- ، والقليل منه كثير، كما قال الشاعر:

قَلِيلٌ مِنكَ يَكْفِينِي وِلَكِنْ قَلِيلٌ لَا يُقَالُ لَهُ قَلِيلُ(57)

ولهذا قرأ الحسن «اهدنا صراطا مستقيما»(58) ، أي: نحن راضون منك بالقليل، ومثل هذا في الشعر كثير قال:

وَإِنِّي لَرَاضٍ مِنْكُ يَا هِنْدُ بِالذِي لَوَ ابْصَرَه الْوَاشِي لَقَرَّتْ بَلَابِلُه
بِلَا وَبِأَن لَا أَسْتَطِيعُ وَبِالْمُنَى وَبِالْوَعدِ حَتَّى يَسْأَمُ الْوَعْدَ آمِلُه(59)

والثاني من عيسى -عليه السلام - والألف واللام لاستغراق الجنس، ولو أدخل عليه التسعة والعشرين(60) والفروع المستحسنة والمستقبحة(61) لم تبلغ عشر معشار سلام الله عليه، ويجوز أن يكون ذلك وحيا من الله عز وجل فيقرب من سلام يحيى، وقيل إنما دخل الألف واللام لأن النكرة إذا تكررت تعرفت، وقيل نكرة الجنس ومعرفته سواء، تقول لا أشرب ماء ولا أشرب الماء فهما سواء" اهـ

وحدة الموضوع: يقال في هذا الموضع ما قيل في سابقه من اختلاف الموضوع، وعدم دخوله تحت مسمى المتشابه اللفظي الاصطلاحي. وهذا كما مر لا يمنع من إيراد التساؤل عنه لفهم أسرار التعبير القرآني .

الدراسة : يقال هنا إن ما نصّ عليه الكرماني في توجيهه الأول، قد ذكر نحوه كثير من أهل التفسير واللغة، حيث ذكروا أن لفظ "السلام" لم يرد من جهة الله إلا منكّرا ؛ لأن سلاما قليلا من جهته - عز وجل - كاف لتحقيق كل ما يطلبه العباد من أمن أو تحية (62) ، كقوله - تعالى- : ﴿ **اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا** ﴾(63) ﴿ **سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ**)(64) ﴿ **سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ**﴾(65) ﴿**سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ**﴾(66) ﴿ **سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ**﴾(67) ' وهذا الذي ذكره مناسب لتوجيه تنكير لفظ (السلام) في قصة يحيى عليه السلام ؛ لكن في مقابل ذلك فإني أرى أن ما ذكره من توجيهٍ لتعريف لفظ "السلام" في الآية الأخرى الواردة في قصة عيسى –عليه السلام- فيه بُعدٌ ، وهو ناتج عن إغفال النظر في سياق الآيات، والأنسب - والله أعلم- أن يوجَّه هذا الموضع بما ذكره الزمخشري في تفسيره بقوله: « والصحيح أن يكون هذا التعريف تعريضا باللعنة على متهمى مريم عليها السلام وأعدائها من اليهود. وتحقيقه أن اللام للجنس، فإذا قال:" وجنس السلام عليّ خاصة" فقد عرض بأن ضده عليكم. ونظيره قوله تعالى **وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى** ﴾ [سورة طه آية 48] يعنى: أن العذاب على من كذّب وتولى، وكان المقام مقام مناكرة وعناد، فهو مَئِنَّة (68) لنحو هذا من التعريض»(69) ، فهذا التوجيه الذي ذكره

الزمخشري ألصق بسياق الآيات من غيره من التوجيهات الأخرى التي ذكرها الكرماني، فتوجيهات الكرماني وإن لم تكن فيها مخالفة له؛ لكن يبقى فيها بعدٌ من هذه الناحية. أعني" الناحية السياقية".

وقوله : " **وقيل إنما دخل الألف واللام لأن النكرة إذا تكررت تعرفت».** يريد أن يجعل السلام الثاني معهودا من السلام الأول. وقد ذهب بعض المحققين من العلماء إلى أن هذه القاعدة ليست مطّردة، بل ذهب بعضهم إلى تخطئة القول بإطلاق هذه القاعدة ، ومنهم ابن هشام الأنصاري، حيث ذكر في الباب السادس من مغني اللبيب « التحذير من أمور اشتهرت بين المعربين والصواب خلافها وهي كثيرة والذي يحضرني الآن منها عشرون موضعا» ... إلى أن قال: «الرابع عشر: قولهم إن النكرة إذا أُعيدت نكرة كانت غير الأولى، وإذا أعيدت معرفة أو أعيدت المعرفة معرفة أو نكرة كان الثاني عين الأول»(70) ثم أخذ يعدد أمثلة تدل على عدم صحة هذه القاعدة. وقال الألوسي رحمه الله :والقول بأن «أل» فيه لتعريف العهد خلاف الظاهر؛ بل غير صحيح، لا لأن المعهود سلام يحيى عليه الصلاة والسّلام وعينه لا يكون سلاما لعيسى عليه الصلاة والسّلام لجواز أن يكون من قبيل ﴿**هذَا الَّذِي رُزِقْنا مِنْ قَبْلُ** ﴾ [البقرة: 25] أي : مثله، بل لأن هذا الكلام منقطع عن ذلك وجودا وسردا، فيكون معهودا غير سابق لفظا ومعنى»(71)

الموضـــــع الثالث :

قوله : ﴿ **فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾وفي "حم" الزخرف ﴿ **فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ** ﴾؛ لأن الكفر أبلغ من الظلم وقصة عيسى - عليه السلام - في هذه السورة مشروحة، وفيها ذكر نسبتهم إياه إلى الله - تعالى - حين قال ﴿**مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ** ﴾ فذكر بلفظ الكفر، وقصته في الزخرف مجملة فوصفهم بلفظ دونه وهو الظلم»(72) اهـ

وحدة الموضـــــوع: الموضوع في الآيتين واحد وهو الحديث عن اختلاف أهل الكتاب في أمر عيسى - عليه السلام- ؛ ويلاحظ هنا أن الكرماني - رحمه الله- لم يتناول كلّ جوانب المتشابه في الآية بالتوجيه، فهو وجّه اختلافا واحدا وهو قوله : ﴿ **فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾في سورة مريم وقوله ﴿ **فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا** ﴾ في سورة الزخرف، وأغفل ذكر الاختلاف الثاني في الآيتين وهو قوله﴿**مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾

في سورة مريم وقوله مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ }في سورة الزخرف. وهذا مما يؤخذ عليه، إذ لا يحسن تجاهل بيان السر في اختلاف الفاصلة في الآيتين.

الدراســـة : أعمل الكرماني - رحمه الله- النظرة إلى السياق في الآية فذكر أن التعبير جاء بلفظ « الذين كفروا» وذلك لأنه جرى الإشارة إلى كفرهم في قوله ﴿ **مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ**) فأعاد الكلام عليهم بذكر العمل الذي اقترفوه وهو الكفر بالله حين اختلفوا في عيسى- عليه السلام -بقول بعضهم: هو الله، وقال بعضهم: هو ابن الله، وقال آخرون: ثالث ثلاثة، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا"(73) ، وأما في سورة الزخرف فذكر - رحمه الله - أن السياق جاء مجملا ولم يقع فيه الإشارة إلى الكفر فوصفهم بلفظ الظلم" . يريد أنه ورد بلفظ عام يشمل الكفر وغيره(74) . لقوله تعالى - ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾ (75) ، وقال - تعالى- : ﴿ **وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ)** (76) روى الطبري في تفسيره بسنده عن عطاء بن يسار أنه كان يقول : الحمد لله الذي قال ﴿ **وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ**)، ولم يقل «والظالمون هم الكافرون».اهـ(77)

وما ذكره الكرماني من التعليلات في هذا الموضع هي من التوجيهات الرائقة ، لكن يمكن أن يقال إن نظر الكرماني في سياق سورة الزخرف لم يأت على الوجه الأتم إذا ما قورن بما ذكره غيره كابن الزبير حيث يقول : « أن وصفهم بالظلم في سورة الزخرف تقدم ما يدل عليه وهو قوله ﴿ **وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ**﴾(78) في حق من اعتمد غير الله سبحانه، ثم لما جاء الكلام على من اختلفوا في نبي الله عيسى عليه السلام، وسمهم بالظلم كوسم من تقدم... إلى أن قال: "وظلم هؤلاء هو كفر كحال من تقدم فتناسب هذا»(79) ، وكذلك جاء ذكر الظلم في الآيات اللاحقة، في قوله تعالى ﴿**وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ** ﴾(80)

فيلاحظ من هذا أن الكرماني رحمه الله -وإن كان التعليل الذي أتى به لموضع سورة الزخرف هو تعليل حسن - بحسب رأي الباحث - لكن ينقصه التوسع في النظر في سياق الآية وربطها بسياق الآيات السابقة واللاحقة لها.

الموضـــــع الرابع:

"قوله ﴿ **وَعَمِلَ صَالِحًا** ﴾(81) ، وفي الفرقان ﴿ **وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا** ﴾(82) ؛ لأن في هذه السورة أوجز في ذكر المعاصي فأوجز في التوبة وأطال هناك فأطال".

الدراســـة : هذا ما وجّه به الكرماني هذا الموضع، ويظهر جليا في توجيهه منهج الإيجاز والاختصار الذي بنى عليه كتابه كله، حيث جاء جوابه في غاية الاقتضاب .

بالإضافة إلى ذلك فإن ما أورده يعدّ –بحسب رأيي - من التوجيهات الأسلوبية(83) التي تأتي تبعا للتعليلات المعنوية. لأن المعاني هي المرادة بالأصالة -كما مر معنا في ضوابط توجيه المتشابه اللفظي.

فهذان مأخذان يمكن أن يؤخذا عليه في هذا الموضع ... ولكي يتجلى الأمر للقارئ يحسن أن أُورد كلام الإسكافي هنا، قال الخطيب الإسكافي : للسائل أن يسأل فيقول:. ما بال الفعل في الآية الأخيرة أُكد بذكر المصدر معه من دون الفعل في الآية الأولى؟ والجواب أن يقال: أما الأول فإنه بعد قوله: ﴿ **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا**﴾، فكان موضع إيجاز لذكر المعاصي، فبُنى الكلام عند ذكر التوبة على ما بُنى عليه عند ذكر المعصية. ولم يكن كذلك الموضع الثاني، لأنه بدئ بقوله ﴿**وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا** ﴾ فلما ذكر الكبائر، وأن أولياء الله يجتنبونها، وأن من أتاها ضوعف له العذاب إلا أن يتوب ويعمل عملا صالحا، كان الموضع موضع تأكيد؛ لأنه لمن يعمل العمل الصالح بعد ارتكاب الكبائر التي عددها. فلما أكد الكلام هناك وجب تأكيده هنا، أعني عند محو السيئات المتقدمة بالحسنات المستأنفة، فاختلاف الآيتين في التوكيد لما ذكرنا»اهـ(84)

فيلاحظ أن الإسكافي لم يكتف بالتوجيه الذي ذكره الكرماني وهو "مناسبة الإيجاز للإيجاز والتفصيل للتفصيل"، بل كان توجيهه أدق من حيث وقوفه على الحكمة، وهي قوله «فلما أكد الكلام هناك-أي في فعل المعاصي- وجب تأكيده هنا -أي عند ذكر الحسنات- » فالعلة عنده هي تأكيد الكلام، لأن الموضع والسياق يحتاج إلى تأكيد . وليست العلة (مناسبة الإيجاز للإيجاز والتفصيل للتفصيل) كما ذكره الكرماني.

فاتضح بهذا (المأخذ الأول) الذي ذكرتـــه . وهو عدم الدقة في عبارته.

وكذلك المأخذ الثاني - وإن كان داخلا في مضمون الكلام السابق - لكن يحسن تفصيله على حدة : وهو الاقتصار على العلة الأسلوبية دون العلة المعنويـــة، فإنه يظهر من خلال ما مرّ من كلام الخطيب _كذلك_ فقد رأينا أنه جعل التوجيه الأسلوبي - وهو "مناسبة الإيجاز للإيجاز والإطالة للإطالة"- جعل هذا التوجيه وسيلة يصل بها إلى الدلالة المعنوية، وهي أن المقام هنا في سورة الفرقان مقام توكيد . «لأنه لما ذكر الكبائر، وعدّدها، وأن أولياء الله يجتنبونها، وأن من أتاها ضوعف له

العذاب، إلا أن يتــوب ويعمل عملاً صالحا، كـان الموضـع موضـع تأكيـد؛ لأنـه لمـن يعمل العمل الصالح بعد ارتكاب الكبائر التي عددها" اهـ ... فهو لم يكتف بإيراد العلة الأسلوبية؛ بل تعداها إلى بيان الحِكم المعنوية.

الخاتمـة:

فمن خلال مطالعتي لكتاب البرهان وغيره مـن الكتـب أثنـاء إعـدادي لهـذا البحـث، ظهرت لي عدة نتائج أذكر منها:

ـ علم متشابه النظم من أهم العلوم التي يمكن أن يلـج منهـا البـاحثون لدراسـة إعجـاز القرآن الكريم

ـ أهمية تتبع قواعد وضوابط هذا العلم ، وأن العمل بها يحفظ من الزلـل ويعصـم مـن الخطأ.

ـ أهمية السياق في توجيه المتشابه اللفظـي، وهـذا أمـر لامسـته عمليّـا بعـد أن طالعتـه نظريّا.

ـ يلاحظ- والله أعلم- أن توجيهات الإمام الكرماني رحمه الله فيها توسع بعض الشــيء إذا ما قورنت بعبارة غيره، وخاصة الخطيب الإسكافي وابـن الزبيـر الغرنـاطي فهمـا أدق منه عبارة، وأضبط منه توجيها.

ـ من خلال البحث لاحظت أن الكرماني يجيب على الآية بصورة مباشـرة، أمـا غيـره كالإسكافي وابن الزبير فإنهما يحددان معالم الموضوع بتوجيه أسئلة حول الآية.

ـ ما ذكرته من أحكام عن منهج الإمام الكرماني -¬- إنما هو من خلال المواطن التـي بحثتها ولا يُعدّ ذلك حكما عاما . لأن الحكم العام يحتاج إلى استقراء الكتاب بأكمله. ولا يكون من خلال مطالعة سورة واحدة. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

بيان تضارب المصالح

يُقر المؤلف بعدم وجود أي تضارب مالي أو علاقات شخصية معروفة قد تؤثر على العمـل المـذكور في هذه الورقة.

الهوامـــــــــش :

1- ينظر معجم الأدباء لياقوت الحموي 488/5، وغايـة النهايـة فـي طبقـات القـراء لابـن الجـزري 291/2، وبغية الوعاة للسيوطي 277/2، وطبقات المفسرين للأدنروي 149.

2 - ينظر معجم البلدان لياقوت الحموي 454/4.

3- من التحقيقات المفيدة عن حياة الكرماني ما أورده محقق كتاب الكرماني (غرائب التفسير وعجائب التأويل للكرماني) الدكتور شمران العجلي . فقد وقف على عدد من المصنفات المخطوطة التي يصعب الحصول عليها ، كما أنه استفاد من بعض الكتب المدونة باللغة الفارسية .

4- غاية النهاية في طبقات القراء 265/1،264.

5- المصدر نفسه 114/2.

6- ينظر معجم الأدباء 445/5، وغاية النهاية في طبقات القراء 337/2.

7- ينظر شواذ القراءات لأبي عبد الله الكرماني 37. ومقدمة تحقيق كتاب غرائب التفسير وعجائب التأويل للكرماني بتحقيق شمران سركال يونس العجلي 31/1.

8- ينظر معجم الأدباء488/5، وغاية النهاية في طبقات القراء 422/2، وطبقات المفسرين للأدنه وي 150، ومعجم المؤلفين لكحالة 161/12.

9- معجم الأدباء 488/5.

10- غاية النهاية 422/2.

11- طبقات المفسرين للأدنه وي 149.

12- ينظر معجم الأدباء 488/5، وغاية النهاية 422/2، و طبقات المفسرين للأدنه وي 150.

13- الأعلام للزركلي 167/7

14- مقدمة تحقيق كتاب عجائب التفسير وغرائب التأويل للكرماني ، تحقيق: شمران العجلي 34/1.

15- غاية النهاية 291/2.

16- هدية العارفين 402/2، ومعجم المؤلفين 161/12.

17 - طبقات المفسرين 312/2.

18 - ينظر كتاب البرهان للكرماني: بتحقيق عبد القادر أحمد عطا والذي سماه المحقق (أسرار التكرار في القرآن) ص64 هامش 13.

19- ينظر البرهان في متشابه القرآن 19، 20

20 - المصدر نفسه 20، 21.

21 - البرهان في متشابه القرآن تحقيق عبد القادر أحمد عطا 20، 21.

22- ينظر المخصص لابن سيدة 373/3 والقاموس المحيط 1610.

23- سورة الأنعام 99.

24- مقاييس اللغة 243/2

25- المصباح المنير للفيومي 303/1

26- تأويل مشكل القرآن 68 بتصرف.

27- أنواع التصنيف المتعلقة بتفسير القرآن الكريم 80، 81.

28- ما ذكرته في هذه المسألة هو من جهة العموم، أما من حيث التفصيل فيمكن إظهار شيء من الفروق بين الاتجاهين، كأن يقال إن المؤلفين في اتجاه الجمع لا يشترط أن يتقيدوا بالوحدة الموضوعية للآيات، لأن غرضهم بيان كل ما من شأنه أن يوقع طالب القرآن في اللبس، سواء أتحد موضوع الآيات أم اختلف، فبمجرد وجود توافق لفظي بين الآيات فإنهم يوردونها في كتبهم، أما في اتجاه(التوجيه والتعليل) فالأصل مراعاة الوحدة الموضوعية للآيات المتشابهة . والله أعلم.

29- ينظر البرهان في علوم القرآن 112/1، والإتقان في علوم القرآن 390/3. والمتشابه اللفظي في القرآن الكريم وتوجيهه دراسة موضوعية لمحمد بن راشد بركة. والمتشابه اللفظي وأسراره البلاغية للشثري 8-10

30- البرهان في علوم القرآن للزركشي 112/1. والإتقان في علوم القرآن للسيوطي 390/3. ومعترك الأقران 1/ 66 والكليات للكفوي 845.
31- ملاك التأويل 145.
32- جامع البيان في تأويل القرآن 178/6
33- ينظر البرهان في علوم القرآن 1/ 113، 114، ومقدمة تحقيق كتاب درة التنزيل وغرة التأويل للإسكافي، للدكتور محمد مصطفى آيدين 54، 55.
34- ينظر متشابه القرآن العظيم لابن المنادي 226هـ
35- ينظر درة التنزيل وغرة التأويل للإسكافي للخطيب الإسكافي 219.
36 -التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن على طريق الإتقان 263، 264
37- يراجع في ذلك رسالة محمد راشد بركة ، بعنوان : المتشابه اللفظي في القرآن الكريم وتوجيهه دراسة موضوعية محمد راشد بركة 84- 115، ودلالة المتشابه اللفظي في السياقات القرآنية لفاطمة الزهراء برحمون 37، ومقال للدكتور محسن بن علي الشهراني ، بعنوان : المتشابه اللفظي في القرآن الكريم : مفهومه ، مصنفاته، أهميته ، فوائده. منشور بموقع تفسير للدراسات القرآنية.
38- ينظر أنواع التصنيف المتعلقة بتفسير القرآن الكريم 82، 83، والمتشابه اللفظي في القرآن الكريم وتوجيهه دراسة موضوعية 43.
39- صور البديع ، فن الأسجاع 189/2، نقلا عن كتاب الدلالة المعنوية لفواصل الآيات القرآنية 57.
40- ينظر بدائع الفوائد 877/3.
41- البرهان في علوم القرآن 382/2
42- الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز 220
43- الإمام في بيان أدلة الأحكام 159.
44- التسهيل لعلوم التنزيل 19.
45- مقدمة في أصول التفسير 54.
46- تيسير الكريم الرحمن 30.
47- المحرر الوجيز لابن عطية 52/1
48- بيان إعجاز القرآن للخطابي (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) 29.
49- أخرجه الطبري في تفسيره 378/6،377. وحكم عليه ابن كثير بالضعف. ينظر تفسيره 218/5.
50- البرهان في متشابه القرآن 112.
51- ينظر البرهان للزركشي 87.
52- البرهان في توجيه متشابه القرآن 11.
53- ملاك التأويل للغرناطي 793.
54 - سورة المائدة :117.
55- مِلاك التأويل للغرناطي: 794 ، 795. وكلام الغرناطي فيه إشكال إذا قلنا أن ما ذكره من قول النصارى أن عيسى ابن الله -تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا- لم يكن واقعا في ساعة ولادته ولحظة صدور هذا الكلم منه، فكيف يقال أنه يُعرِّض بهم في أمر لم يحصل بعد؟ فالجواب والله أعلم أن توجه الآية بما ذكره الرازي في تفسيره بقوله: «لما بين أنه جعله برّا، وما جعله جبارا" فهذا إنما يحسن لو أن الله تعالى جعل غيره جبارا، وغير بار بأمه، فإن الله تعالى لو فعل ذلك بكل أحد لم

يكن لعيسى عليه السلام مزيد تخصيص بذلك، ومعلوم أنه عليه السلام إنما ذكر ذلك في معرض التخصيص». مفاتيح الغيب 536/21. فالرازي جعل التعريض محصورا في سياق الآيات وهو تنزيه أمه عما اتهموها به. وهذا التوجيه يسلم من الإيراد الذي أوردته على توجيه الغرناطي -والله أعلم.

56- الدلالة المعنوية لفواصل الآيات القرآنية للدكتور جمال أبو حسان 165-167.

57- نسبه المستعصمي في الدر الفريد إلى أحمد بن علي الميكالي. وهو عنده «ولكن قليلك». الدر الفريد وبيت القصيد للمستعصمي 356/8.

58- ينظر المحرر الوجيز لابن عطية 1/ 66، وإتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر 164/1.

59- هذا البيت نُسب لغير واحد، فهو ينسب لجميل بثينة إذ يقول: «وإني لأرضى من بثينة بالذي»، ولابن الدمينة : «وإني لأرضى منك يا ميّ»، ولكُثيّر عزَّة: «وإني لأرضى منك يا عز بالذي»، ولمجنون ليلى : «وإني لأرضى منك يا ليلُ بالذي». ينظر الوحشيات لأبي تمام 189، والشكوى والعتاب وما وقع للخلان والأصحاب للثعالبي 180، وربيع الأبرار للزمخشري 433/3، والدر الفريد وبيت القصيد للمستعصمي 174/10.

60- يعني حروف الهجاء التسعة والعشرين.

61- يعني بالفروع هنا الحروف المتفرعة عن حروف الهجاء كالهمزة المسهلة والألف الممالة والصاد المشمة صوت الزاي. منها ما هو مستحسن كالذي ذكر ومنها ما هو مستقبح كالكاف التي بين الجيم والكاف . ينظر الفوائد المسعدية 23، 24.

62- البلاغة العربية لحبنكة الميداني 404/1. وخصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني للدكتور محمد أبو موسى 216،217 .

63 - سورة هود : 48.

64سورة يس : 58.

65- سورة الصافات : 79.

66- سورة الصافات : 109.

67- سورة الصافات :120.

68- جاء في تهذيب اللغة : وقال أبو عبيد: قال الأصمعي: سألني شعبة عن (مئنة) ، فقلت: هو كقولك علامة، وخليق". تهذيب اللغة 404/15.

69- الكشاف 16/3.

70- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب 854/1، 861-865.

71- روح المعاني للألوسي 409/8

72- البرهان في متشابه القرآن 112.

73- ينظر تفسير في ظلال القرآن 97/5.

74- ينظر مفردات القرآن للراغب الأصفهاني 537،538، والتحقيق في كلمات القرآن للمصطفوي 204/7-209.

75 - سورة لقمان:13.

76- سورة البقرة :254.

77- جامع البيان للطبري 385/5.

78- سورة الزخرف :39.

79 - ينظر ملاك التأويل 796،797.

80 - سورة الزخرف 76.

81- سورة مريم: 60. والآية بتمامها ﴿ **إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا**) 82- سورة الفرقان:70. وهو قوله تعالى﴿ **إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا**).

83- وهو توجيه بالمناسبة . مناسبة الإيجاز للإيجاز ، ومناسبة الإطالة للإطالة .

84- درة التنزيل وغرة التأويل : 887، 888.